الصَّيدُ بَين النّعمَة وَالابتِلاء

أما أن الصيد نعمة جليلة القدر فى موازين الدنيا وموازين الدين، فما أحسب أن ذلك خفى عليك وجهه أو دق إلى فهمك مسلكه، منذ بدأنا رحلتنا معًا بين سطور هذا الكتاب، وأما أنه ابتلاء، فهو ما نريد أن نجعله غاية الحديث فى هذا الباب. والله هو المستلاذ والمستعاذ، نعوذ به من جهد البلاء، ونلوذ به - سبحانه - فى ألّا يبلونا إلا بالتى هى أحسن، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم - أما بعد - فإن أول وأولى ما تنبغى العناية به فى المقالات والكتب، إنما هو تحديد معانى الكلمات، من حيث كان ذلك معوانًا على الإدراك البصير، والفهم المستوعب. ولعله من أجل ذلك حرص أسلافنا أشد الحرص على أن يبلغوا أبعد الغايات فى العناية بكلمات اللغة العربية الشريفة وطرائق استخدامها، والتماس الشواهد لها فى أبواب الحقيقة والمجاز والكناية، بما لم يسبقهم إليه سابق وربما لم يلحقهم فيه لاحق، حتى جاء هذا الجهد المقدور المشكور، تبيانًا وتفصيلًا لما أجملته الآية الكريمة: ﴿الرحمن علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان﴾.

وإذ قد كان البيان خصيصة النوع الإنسانى، فإن الإنسان العربى - عروبة سليقة، أو عروبة دربة - قد ظفر من هذه الخصيصة بأوفر نصيب وأوفاه، على ما يقرر ذلك الأئمة من علماء العربية وأُدبائها، وفى ذروتهم أبو على الفارسى إمام علماء الاشتقاق، وابن جنى الرومى إمام فقهاء اللغة

وسيد البصراء بمواقع الكلمات وصياغة الأساليب. وكلا الرجلين - فيما نعلم - ثقة بعيد الغور شديد الغوص، صحيح الاستنتاج. وكلاهما - فيما نعلم أيضًا - غير متهم فى هذا الباب بعصبية ولا جانح إلى شعوبية، يجعل الركون إليه والأخذ عنه والجرى معه فى طريقه أمرًا غير مأنوس أو مذهبًا غير مأمون.

وبمقدار ما بذل أولئك الأسلاف من جهد فى تيسير السبل إلى فقه اللغة وتجلية أسرارها خدمة لأغراض القرآن الكريم، انطلق أعداء أُمتنا يعملون بكل سبيل على طمس المعالم إلى العناية باللغة، فتارة يشككون فى تراثها، وطورًا يحرضون على إطراحها، بحجة أنها شديدة التعقيد متأبية على الانقياد، ثم هم لا ينفكون يدعون إلى مزاحمتها باللغات العامية فى إصرار مستبسل وإلحاح دءوب. ولا يعرف الناس لذلك من غاية تسوِّغه سوى غاية وحدة، هى أن يستغلق فهم القرآن العظيم، بانطماس المعالم إلى فهم الكلمات وفقه الأساليب. ولئن تم لأولئك الأعداء ما يريدون - عن طريق تشجيع الحاقدين، أو إقناع الأغرار، أو إغراء الطامحين - إن الخطب آنئذ لفادح وإن البلاء فى ذلك لعظيم.

الابتلاء شريعة ماضية:

ومع أن كتابنا هذا عن الصيد، والحديث فيه لا ينبغى أن يجاوز الابتلاء بالصيد، نرى مما لابد منه أن نتعرض بحديث فى باب عموم الابتلاء عن أبى الأنبياء إبراهيم صلى الله عليه وعلى الصفوة من سلالته إلى يوم الدين.

مَن إبراهيم؟

إنه - صلوات الله عليه - أبو الأنبياء، وقد امتحنه ربه بألوان من البلاء

لا يطيقها إلا أولو العزم من عباد الله المخلصين، حتى إذا اجتاز المحنة اتخذه ربه بعد ذلك خليلًا: ﴿إن إبراهيم كان أُمّة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين. شاكرًا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه فى الدنيا حسنة. وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾.

إبراهيم حق:

ربما بدا غريبًا أن تأخذ العين هذا العنوان موضوع حديث فى هذا الباب، من حيث كان إبراهيم حقًا لا يرقى إليه الريب، وكان أبناؤه - بنوة عرق، أو بنوة دين - تكاد تضيق بهم الدنيا على تعدد أقطارها وانفساح افاقها، وهم يعرفونه عَليه السَّلام. كما يعرفون مكة فى الجزيرة العربية، ولندن فى الجزر البريطانية، وواشنجتن فى الولايات المتحدة الأمريكية، ومنسك فى روسيا، وبكين فى الصين.

وإذ قد كانت هذه المدن - فى مواقعها من أرض الله - حقائق ثوابت تواترت بها الأخبار حتى غدا جحودها شيئًا عجيبًا لا يكالم أو يناقش من يجحده أو يجادل فيه؛ والأمر على ذلك فى إبراهيم عَليه السَّلام، بل إن وجوده لأقوى حجة وأوضح محجة، من حيث كان حقيقة دينية تاريخية فى آن.

غير أن بعض الكتاب من العلماء والأدباء فى الغرب وفى الشرق، يكادون ينكرون وجوده، أو هم يفعلون؛ بحجة أن الآثار لم تتحدث عنه، وأن الأحجار لم ينقش عليها اسمه، وكل ما يمكن الرجوع إليه فى إثبات وجوده إنما هو الكتب السماوية المقدسة، فهو من أجل ذلك حقيقة دينية وليس حقيقة تاريخية.

وقد تولى رد هذه الحجج وتوهينها الغبارى على الحقائق فى كل بلد فيه

علماء وفيه غيارى على الحقيقة. ولذلك لا نفيض فى هذا الحديث، وحسبنا أن نروى لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ما ذكره مما يتعلق بهذا الشأن، فإنه الفحل الذى لا يقدع أنفه وهو عالم العقلاء وعاقل العلماء، فذلك حيث يقول رحمه الله: لقد كانت العرب فى جاهليتها، تحتال فى تخليدها مآثرها، بأن تعتمد على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها. وعلى أن الشعر يعتبر فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح، وفضيلة المأثرة على السيد المرغوب إليه والممدوح به، ذهبت العجم على أن تقيد مآثرها بالبنيان، فبنوا مثل كردبيداد، وبنى أردشير بيضاء اصطخر وبيضاء المدائن والحضر والمدن والحصون والقناطر والجسور. ثم إن العرب أحبت أن تشارك العجم فى البناء وتنفرد بالشعر، فبنوا غمدان، وكعبة نجران، وقصر مارد، وقصر مأرب، وقصر شعوب، والأبلق الفرد، وفيه قالوا: «تمرد مارد وعز الأبلق»، كما بنوا غير ذلك من البنيان.

قال: ولذلك لم تكن الفرس تبيح شريف البنيان، كما لا تبيح سريف الأسماء إلا لأهل البيوتات، كصنيعهم فى السواويس والحمامات والقبات الخضر، والشرف على حيطان الدار، والعقد على الدهليز وما أشبه ذلك. على أن الثقاب لا ينفكون يقررون أن ما دونت العلماء من صنوف البلاغات والصناعات والآداب والأرفاق من القرون السابقة والأمم الخالية ومن له بقية، أبقى ذكرى، وأرفع قدرًا، وأكثر ردًّه، لأن الحكمة أنفع لمن ورثها من جهة الانتفاع بها، وأحسن فى الأحدوثة لمن أحب الذكر الجميل. والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يمحوا ذكر أعدائهم فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية؛ وعلى ذلك هم فى أيام الإسلام، كما هدم عثمان صومعه غمدان، وكما هدم الآطام التى كانت بالمدينة،

وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر، وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبنى مروان.

نقول: وهذا الذى ذكره أبو عثمان يؤيده ما حدث فى بلادنا مصر من عدوان على التاريخ فى مسجدى السلطان حسن والمردانى، فقد سرق أحدهما باب مسجد الآخر للمسجد الذى بناه. فالبلية بمثل هذه التصرفات بلية عامة، وعلى هذا الأسلوب نفسه صنعنا نحن فى مصر ولا نزال نصنع مثلما صنع الأولون، من تغيير أسماء الشوارع وغيرها ومن وضع لوحات على المبانى يضيع بها الحق ويضل فى ثناياها التاريخ.

والعبرة من هذا الحديث أن الذين يقومون بهدم آثار من قبلهم أو يطمسون معالم تاريخهم تختلف دوافعهم إلى ما يعملون، فمنهم من تدفعه إلى ذلك نية حسنة كأن يطمس معلماً من معالم الجاهلية، على نحو ما فعل سيدنا عثمان بهدم الآطام، وسيدنا عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التى بايع النبى أصحابه تحتها فى عمرة القضاء، ومن هؤلاء من يدفعهم إلى ذلك الحقد والحسد وسوء الاستغلال والرغبة فى القضاء على تاريخ الصالحين والمصلحين الذين يعاندون الجبابرة ويحاولون مقاومة الطغاة من الحاكمين المسلطين.

وقد كان إبراهيم عَليه السَّلام قد خاصم أحد الجبابرة المتسلطين، ثم فرّ منه نجاء بنفسه، فجدَّ هذا الجبار فى طلبه وأرسل فى إثره من يقبض عليه قائلًا لهم: «إذا وجدتم فتى يتكلم السريانية فردوه». فلما أدركوه، استنطقوه فخاطبهم باللسان العبرانى، فأفلت منهم ونجا من قبضة الحاكم الطاغية المتسلط، على ما يشير إلى ذلك الطبرى المؤرخ - رحمه الله -.

والذى يتدبر هذا القول لا يجد مناصًا من الإيمان بأن مخاصمة إبراهيم لذلك الجبار تجعله يمحو اسمه من كل كتاب يكتب ومن كل أثر يروى ومن

كل حجر يقش عليه اسمه، فذلك عند التفكر البصير والتأمل المنصف، يعطى حقيقة لا شك فيها وهى أن الشواهد التاريخية المحكية عن الآثار والمنقوشة على الاحجار ليست كلها حقا. ومن ثم لا ينبغى أن تكون هى المرجع الوحيد فى إثبات المثبت ونفى النافى. وكتب الله المقدسة أجلُّ قدرًا وأعلى ذكرًا وأخلد أثرًا وأثبت رواية وأحق بالثقة والاعتبار من رواية الآثار ونقش الأحجار.

إبراهيم فى القرآن:

وفى شأن إبراهيم يقول الله جل ثناؤه فى سورة الأنعام المكية : ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصنامًا آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين﴾، إلى آيات كثيرة من كتاب الله تشير كلها إلى صلابة عزمه وقوة يقينه واستحقاقه نعمة الله فى اجتبائه إياه لهداية خلقه إلى صراط الله المستقيم.

من ازر؟

يختلف أهل العلم فى ازر هذا هل هو أبوه أو عمه؟.

والذى أراه حليقًا بالاختيار فى هذا الباب، هو أن آزر اسم الصنم الذى كان يعبده أبوه. ومألوف فى لغة العرب تسمية الرجل باسم صنم يعبده، أو امرأة يشبب بها، على طريق نبزه وتنقصه وتعييره، كما قال شاعر يشبب بامرأة تدعى أسماء فأطلق الناس عليه اسمها فكان ضائق الصدر بذلك حتى كان يقول:

أُدعى بأسماء – نبزًا – فى قبائلها كأن (أسماء) أضحت بعض أسمائى

وعلى مثال ذلك صنعوا مع شاعر يعرف «بقيس الرقيات» ولم يكن

ذلك اسمًا له ولا لقبًا لقبه به أهله وإنما أطلقه عليه قومه على سبيل النبز والتعيير والتنقيص فكانوا يدعونه «قيس الرقيات» - جمع رقية - وهن النسوة اللآتى كان يشبب بهن. فلم يكن من أجل ذلك يعرف إلا بهذا اللقب.

وعلى هذا النحو سُمى أبو ابراهيم باسم الصنم الذى يعبده أبوه وهو آزر على ما يذكر العالم الجليل جار الله الزمخشرى.

ابتلاء إبراهيم:

يقول الله تعالى وتقدس فى شأن إبراهيم عَليه السّلام: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربُّهُ بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إمامًا. قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين﴾.

وابتلاء الله تعالى عباده بالأوامر والنواهى سنة ماضية، وشريعة متبعة، وهو مجاز عن تمكين العبد من احتيار أحد الأمرين: الأمر الذى يريده الله، والأمر الذى يشتهيه العبد، وكأنه - تعالى وتقدس - يمتحن عبده ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك. وقد تكررت مادة الابتلاء فى القرآن الكريم، متضمنة معنى الاختبار والامتحان.

قال تعالى: ﴿لتبلونّ فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرًا﴾، ﴿ولنبلونّكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين﴾، ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾، ﴿وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحّص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾، ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾.

هدا. وليس يرتاب مؤمن متدبر فى أن سيد المبتلين وإمامهم، إنما هو أبونا - أبوة عرق أو أبوة عقيدة - إبراهيم عليه السلام. فقد ابتلاه الله تعالى ابتلاء لا يصبر عليه إلا أولو العزم، فذلك حيث قال جل ثناؤه فى سورة البقرة المدنية: ﴿وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين﴾.

ومهما اختلفت آراء العلماء فى المراد من الكلمات التى ابتلى الله بها أبانا إبراهيم فأتمها قائمًا بأمر الله فيها على أحسن الوجوه وأكملها، فإن أمثل هذه الآراء - فيما أحسب - أن هذه الكلمات هى التدبر فى ملكوت السماوات والأرض، والنار التى قذف فيها، والهجرة التى اضطر إليها، ثم جمعه عزمه على امتثال أمر ربه فى ذبح ولده بيده، على ما فى ذلك من أخذ المرء نفسه بما لا طاقة له به ولا قدرة له عادة على احتماله.

فأما ابتلاؤه بالتدبر فى ملكوت الله فهو ما تضمنته الآيات الشريفة: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغًا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون. إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾.

وأما ابتلاؤه بالنار فهو ما تضمنته الايات الشريفة من قول الله تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها

عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين. وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين. فجعلهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون. قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم. قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون. قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون. فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئًا ولا يضركم أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يانار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم. وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين﴾.

وأما ابتلاؤه بمفارقة وطنه والهجرة إلى وطن اخر، فإنه قد هاجر عَليه السلام هجرتين: إحداهما من «كوثى» فى سواد الكوفة، إلى «حران» ثم من «حران» إلى «فلسطين». ومن ثم قيل: «لكل نبى هجرة ولإبراهيم هجرتان».

وفى شأن هذا الابتلاء بمفارقة الوطن يقول الله تعالى وعزّ: ﴿وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم. ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾.

وأما ابتلاؤه بذبح ولده بيده فهو ما تضمنته الآيات الشريفة: ﴿ربِّ هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى قال يابنى

إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدَّقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم﴾.

والذين يتدبرون القرآن الكريم فيما ترتب على هذا النداء الإلهى للذبيح، لا يسعهم إلا أن يشدوا الشرف لقومهم، فيختار اليهود أن الذبيح هو إسحق، ويؤثر العرب أن الذبيح هو إسماعيل عليهما السلام.

وأنت لا تذهب مذهب عصبية باطلة إذا تشبثت بأن الذبيح هو إسماعيل، فإن حجتك حينئذ هى التواتر. والتواتر أصل الأصول فى صدق الأخبار وصحتها، وقد جرى التواتر على أن الذبح كان عند البيت الحرام، وإسماعيل هو الذى كان يقيم عند البيت الحرام. ومن غير الميسور قبوله أن يصحب إبراهيم ولده إسحاق من فلسطين لكى يذبحه فى منى، على أن الله تعالى كان قد بشَّر سارة بأنه سيعطيها على الكبر إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب على ما يقول تعالى: ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾.

ولست تشك - ثبت الله على طريق الحق خطوك - فى أن مما يجرى مجرى التناقض أن يبشر الله بإسحاق ابنًا لإبراهيم من سارة على الكبر ثم يكون هو الذبيح، لأن أمره بذبحه يأخذ الطريق على بقائه فضلاً عن أن يجىء من صلبه يعقوب كما يقضى بذلك منطق البشرى به.

وليس ثمة مخلص من هذا التناقض الذى يتنزه كتاب الله عنه، إلا أن تصير إلى اليقين بأن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق عليهما صلاة الله وسلامه.

وإذ قد كان فداء إسماعيل - بكبش عظيم - جاء به الخير للأب الكريم وللأم المنجبة وللولد الصابر، فإن هذا الفداء قد جرى به خير أعم نفعًا وأحمد عاقبة، من حيث كان توجيهًا للبشرية كلها إلى أن تستبدل بذبح الإنسان تقربًا إلى الآلهة ذبح الحيوان تقربًا إلى الله رب العالمين.

لقد كانت عادة التقرب إلى الآلهة بذبح الآدميين شائعة فى المجتمعات الوثنية على ما يذكر ذلك الأستاذ (ول ديورانت): «إن التضحية بإراقة دم الإنسان قد أخذ بها - على ما يظهر - الناس فى كل الشعوب تقريبًا، فقد وجدنا فى جزيرة كارولينا بالمكسيك تمثالاً كبيرًا من المعدن لإله قديم خلا جوفه إلا من رفات كائنات بشرية لا شك فى أنها ماتت بالحرق قربانًا للآلهة».

ويقول الأستاذ (جيمس بريستد): «الظاهر أن التضحية بالإنسان أخذت بها كل الشعوب، فالفينيقيون والقرطاجنيون كانوا يقدمون القرابين من بنى الإنسان للإله (ملخ) وربما كان منشأ هذه العادة إلف البدائيين أكل لحوم البشر، ثم ظنهم أن الآلهة تستمرئ ما يستمرئون هم من الطعام. ومع مضى الزمن امتنع الإنسان من أكل اللحم البشرى، وبقى هذا التقليد بالنسبة للآلهة. و(ميشا) ملك مؤاب، ضحَّى بابنه الأكبر حرقًا بالنار ليفك الحصار عن مدينته، فلما أجاب إلهه دعاءه وتقبَّل تضحيته بابنه ذبح سبعة آلاف من بنى إسرائيل شكرًا لله على نعمائه».

ويقول الأستاذ (ويلز): «إن لدينا أسبابًا قوية تحمل على الظن بأن بعض الناس كانوا يقتلون الرجال والنساء والأطفال كلما ألمت بهم محن الزمن وهم يظنون أن الآلهة فى أشد الظمأ إلى دم الضحايا البشرية».. إلى آخر ما يقول هؤلاء المؤرخون.

نقول: وعن هذا الانحراف الوثنى وانتكاس الفطرة، نشأت العادة المصرية القديمة، عادة إلقاء البنات الأبكار فى النيل، طلباً لمرضاته أو لمرضاة الإله الذى حلَّ فيه، على ما كانوا يزعمون. فقد روى صاحب «النجوم الزاهرة» أنه لما ولى عمرو بن العاص مصر من قبل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، جاء إليه أهل مصر حين دخل شهر (بؤونة) فقالوا له: إن لنيلنا عادة لا يجرى إلا بها، فقال لهم عمرو: وما تلك العادة؟ قالوا: إذا كان فى اثنتى عشرة ليلة تخلو من شهر بؤونه، عمدنا إلى فتاة بكر فأرضينا أبويها ثم جعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقينا بها النيل فيجرى. قال عمرو: إن هذا لا يكون فى الإسلام.

وقد صوَّر أمير الشعراء شوقى - رحمه الله - هذا المعنى فى رائعته التى يخاطب فيها النيل فقال:

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فُجرت من ... عليا الجنان جداولاً تترقرق
وبأى عين أو بأية مزنة ... أم أى طوفان تفيض وتفهق
وبأى نول أنت ناسج بردة ... للضفتين جديدها لا يخلق
ونحيية بين الطفولة والصبا ... عذراء تشربها القلوب وتعلق
كان الرفاف إليك غاية حظها ... والحظ إن بلغ النهاية موبق
لاقيت أعراسًا ولاقت مأتما ... كالشيخ ينعم بالفتاة وتزهق
فى كل عام درة تُلقى بلا ... ثمن إليك وحرة لا تصدق
حول تسائل فيه كل نجيبة ... سيقت إليك متى يحول فتلحق
والمجد عند الغانيات رغيبة ... يُبغى كما يبغى الجمال ويُعشق
رفت إلى ملك الملوك يحفها ... دين ويدفعها هوى وتشوق
فى مهرجان هزّت الدنيا به ... أعطافها وحتال فيه المشرق

ألقت إليك بنفسها ونفيسها وأتتك شيقةً حواها شيق
خلعت عليك حياءها وحياتها أأعز من هذين شيء ينفق
وإذا تناهى الحب واتفق الفدا فالروح فى باب الضحية أليق

كذلك كانت الإنسانية مسخرة لخيالات مريضة تقودها إلى شر مواطن الوبال. حتى إذا تهيأ أن تدنو إلى كمال رشدها العقلى، شاءت إرادة الله لأبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام أن يحمل عبء الدعوة إلى إبطال هذه العادة القبيحة الموغلة فى باب السفه والحماقة، عادة التقرب إلى المعبود بدماء البشر، شدخًا بحجر أو ذبحًا بسكين أو حرقًا بنار. ثم شاءت له عناية الله أيضًا أن يستبدل بهذه العادة القبيحة عادة أجمل وأنفع، تجعل من دم الحيوان عصمة لدم الإنسان.

على أن دعوة الإصلاح هذه تعثرت مع طول الأمد، فلاحت معالم الوثنية مرة أخرى فى ذرية إبراهيم من إسماعيل، حين نذر عبد المطلب جد سيدنا رسول الله أن يذبح ولده عبد الله وفاءً لنذر كان قد نذره. ولولا أن تداركته رحمة الله ففدى عبد الله بمائة من الإبل لما سلم من الذبح ولما جاء من هذا الصلب الكريم أشرف رسول بأشرف رسالة نعمة من الله ورحمة للعالمين.

معنى العيد الأكبر:

واليوم الذى فدى الله تعالى فيه إسماعيل من الذبح، اتخذه المسلمون - بأمر رسول الله ﷺ - عيدًا لهم، هو عيد الضحية، أو يوم النحر، أو العيد الأكبر.

فليت قومنا يتمثلون هذا المعنى الشريف فى أيام أحفالهم بعيد الضحية. فإن فى هذا التمثل عبرة جليلة تجعلهم يزدادون اعتزازًا بالانتساب إلى الدين

لدى أنقذ الإنسانية من التضحية بالإنسان وإراقة دمه تقربًا إلى آلهة اخترعتها الأوهام وانتحلتها الأهواء، فاستبدل بذلك السفه التقرب إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد بذبح الحيوان، جاعلاً منه فداء لدم الإنسان.

اصطفاء وابتلاء:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير﴾. وليس كل أحد أهلاً لهذا الاصطفاء الكريم، يرفع الله به الخسيسة، ويجعله موطنًا لأمانه الرسالة، يخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلاله إلى الهدى، ومن العبودية لناس مثلهم إلى العبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له، له الملك وبيده الأمر وهو على كل شيء قدير.

وليس لهذا الاصطفاء أسباب يبلغها كسب العبد، أو يحيط بسرّ الله تعالى فيها إدراك، ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومن أولئك الذين اصطفاهم الله لمعنى فيهم، إبراهيم وذريته من إسماعيل وإسحاق على ما يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾.

والله تعالى إذا اصطفى ابتلى واختبر ليميز الخبيث من الطيب، وليعلم كائنًا موجودًا، ما قد علم أنه سيكون ويوجد، ثم ليبدي لأولئك الذين صابروا وصبروا فاجتازوا المحنة ونجحوا في مجال الابتلاء، أنهم أهل لحمل رسالات ربهم وإبلاغها إلى العالمين، فلا يزيدهم ذلك إلا تشبثًا وإخلاصًا وتحريًا لمرضاة الله عز وجل. وإن هم لم يصبروا على البلاء، ولم ينبتوا في مواطن المحنة والاختبار، فقد أعذر الله تعالى إليهم، وكشف لهم أنهم ليسوا

أهلًا لحمل صوالح الرسالات، فلم يسخطوا على مولاهم، ولم يأسوا على ما فاتهم، إذ قد ظهر لهم وجه العذر، فإذا هم ماضون لتصحيح العزائم وتصويب الأخطاء، عسى أن يدركوا فى الغد ما استعصى عليهم إدراكه فى الأمس. والله - تعالى وعز - لم يضع أساس نظام كونه العظيم على المصادفات تخبط بالناس خبط عشواء، ولا على المجاملات تعطى من لا يستحق وتحرم من يستحق، ولكنه وضعه على أصول ثوابت لا تتكاءدها عقبة، ولا ينحرف بها هوى، ولا تتأبى عليها غاية، فهى بالقوانين الطبيعية فى منطق الاختبار العملى، أشبه منها بالكليات النظرية فى منطق الفلاسفة والمفكرين: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾.

ابتلاء وابتلاء:

وكما ابتلى الله تعالى إبراهيم بما أسلفنا الحديث عنه، ابتلى سلائله من إسماعيل أبى العرب وسلائله من إسحاق أبى اليهود. فابتلى سلائل إسماعيل بالنهى عن الصيد فى الحرم، وابتلى سلائل إسحاق بالنهى عن الصيد فى أيام الأسبات. والنهى والأمر مظهر للتكليف. والتكليف كله ابتلاء وإن تفاوت فى الكثرة والقلة، وتباين بالشدة والضعف، على ما يذكر ذلك أهل العلم بمعانى الكلمات، وأصحاب الفقه بالأساليب فى القرآن العظيم.

فى جوار الله:

هذا الجائع المجهود، وعلى مقربة منه عش طائر يستطيع أن ينال منه

بيضة تسد رمقه، وفي متناول رمحه وحشية يستطيع أن يشفي بلحمها قرمه[١]، ومع ذلك هو لا يفعل، لأن البيضة والوحشية في جوار الله.

وهذا قاتل له في كل قبيلة ثأر مقيم، إذا أوى إلى الكعبة فلن يتعرض له أحد بقتل أو أذى، لأنه في جوار الله.

وهذا حيوان أشعر دمًا، أو علقت عليه نعل، لايفكر أحد في الاعتداء عليه، لأنه هدى للكعبة، فهو في جوار الله.

بل هذا رجل تشبَّه بالبعير المهدى للكعبة فعلَّق في عنقه نعلًا، فلا يستطيع أحد أن يمسَّه بسوء، لأنه أيضًا صائر إلى جوار الله.

وهذه الأشهر الحرم: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ورجب، تهل على الجزيرة العربية فتشيع عليها الأمن والسكينة والسلام حتى إن الرجل ليلقى قاتل ابنه أو أبيه أو أخيه فلا يتعرض له، لأنه أيضًا في شهور الله.

كذلك كان القوم في جاهليتهم، لا يحلون شعائر الله والشهر الحرام والهدى والقلائد، من حيوان أو إنسان: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾.

وقد كان ذلك فضلًا من الله ونعمه على أولئك القوم في جاهليتهم، من حيث كانوا قبائل شتى وأهواء مختلفة، ولم تكن لهم دولة تصون الأمن وتنتصف للمظلوم من الظالم. فاقتضت الحكمة الإلهية جعل هذه الأمور قيامًا لأمر الناس وصلاحًا ومعاشًا لأمنهم، ذلك أن الله سبحانه خلق الخلق على جبلة البشرية من التحاسد والتنافس والتقاطع والتدابر والغارة والسلب

---

(١) قرم: شهوة إلى اللحم.

والقتل والثأر، فلم يكن بدّ فى الحكمة الإلهية من كاف تصلح عليه الحال، ووازع يحمد معه المآل. ولم يكن العرب قد استعدوا للاجتماع تحت راية دولة. بما كانوا عليه من شدة الحمية وقوة العصبية والتأبى على الخضوع للسلطان، فكانت تلك الأمور هى المناسبة لهم فى هذه الأحوال؛ ولم يزالوا عليها حتى جاء الله بالإسلام فبدَّل حياتهم وقَوَّم سلوكهم ونهنه من غلواء الكبرياء فى نفوسهم، حتى أنه ليخيل للناظر أن الإسلام خلقهم خلقًا جديدًا لم يكونوا قبله شيئًا مذكورًا. فلما استعدوا لحمل هذا العبء الثقيل والقيام بهذه الأمانة الفادحة، أمرهم الله سبحانه بالخلافة، وجعل أمورهم إلى واحد يزعمهم عن التنازع ويحملهم على التآنف من التقاطع، ويرد الظالم عن المظلوم، ويقرر الأيدى على ما تستولى عليه، فى حماية سلطان الله على ما روى ابن القاسم عن مالك أن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - كان يقول: «ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن». وجور السلطان عامًا أقل أذاية من كون الناس فوضى لحظة واحدة لا سراة لهم. فإنشاء الله تعالى الخلافة إنما كان من أجل هذا المعنى الكبير فى رعاية الحرمات وعصمة الدماء. ومن هنا يبدو على غاية الوضوح معنى تلك الكلمة الجليلة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: «إنى لأعلم متى تهلك العرب، إذا تركوا الجاهلية فلم يأخذوا بأخلاقها، وأدركوا الإسلام فلم يقذهم الورع».

ابتلاء أبناء إسماعيل بالصيد:

الأصل فى هذا كما أسلفنا قول الله جل ثناؤه: ﴿يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم﴾. وقوله تعالى: ﴿يأيها الذين امنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾.. الآية.

وقد عاقب الله تعالى من ينتهك حرمة الحرم فيصطاد فيه، ثم أوعده بالانتقام منه، على ما يذكر ذلك أهل العلم بالتأويل.

ومما تتم به الفائدة فى هذا الباب أن حرم المكان حرمان: حرم مكة وحرم المدينة، وحرم الطائف فيما يرى الشافعى، فلا يجوز فى هذه الأمكنة قطع شجر ولا صيد صيد. والذين سووا فى الحرم بين مكة والمدينة، يتعلقون بقول رسول الله ﷺ فى الصحيح: «اللهم إن إبراهيم حرّم مكة وإنى أحرِّم المدينة مثل ما حرم به مكة، لايختلى خلاها، ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها». وكذلك قوله ﷺ فى الصحيح أيضًا: «المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً». وكذلك حديث سعد بن أبى وقاص أن النبى ﷺ قال: «من وجدتموه يصيد فى حدود المدينة أو يقطع شجرها فخذوا سلبه». وفى الصحيح أن سعدًا ركب إلى قصره بالعقيق فوجد عبدًا يقطع شجرًا أو يخبطه، فسلبه ما قطع أو ما خبط. فلما جاءه أهل العبد فكلموه أن يرد على غلامهم أو عليهم ما أخذ منه، قال: معاذ الله أن أرد شيئًا نفلنيه رسول الله ﷺ؛ وأبى أن يرده عليهم.

ابتلاء أبناء إسحاق بالصيد:

الأصل فى هذا الباب قول الله جل ثناؤه إخبارًا عن بنى إسرائيل: ﴿واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾.

فها هنا ابتلاء بنهى أبناء إسحاق عن صيد السمك أيام الأسبات، وكما

هدد تعالى أبناء إسماعيل بالعقوبة إذا فسقوا عن أمر ربهم، هدد أبناء إسحاق بعقوبة شديدة إذا فسقوا عن أمر ربهم كذلك.

ويتضح معنى الابتلاء بما قررته الآية من أن السمك يأتيهم أيام تحريم الصيد عليهم شارعًا ظاهرًا على وجه الماء وكأنه يتحداهم فإذا مضى يوم السبت عاد السمك إلى حالته العادية وهو على ما ترى فى باب الابتلاء عجيب.

ومما لا ينبغى إغفاله فى هذا الحديث أن أسلافنا كانوا من الفقه بالقرآن واستحضاره بمكان مكين. فقد سئل الحسين بن الفضل من أهل العلم بالتأويل هل تجد فى كتاب الله أن الحلال لا يأتيك إلا قوتًا، وأما الحرام فإنه يأتيك جزفًا جزفًا؟ قال رحمه الله: نعم ثم تلا هذه الآية الشريفة: ﴿واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾. ففى هذه الآية بيّن تعالى أن الله كان قد حرم على أهل هذه القرية صيد السمك أيام الأسبات، وأحله لهم سائر الأيام، فكان السمك يأتيهم فى أيام التحريم أعظم ما يكون كثرة وأشد ظهورًا وأيسر صيدًا فأما فى سائر الأيام فإن الأمر كان على غير ذلك فكانوا يسلكون سبيل الحيلة للحصول عليه خلافًا لأمر ربهم، فيتخذون الحياض ويسوقون إليها السمك أيام الجمع، فيظل حبيسًا فيها حتى إذا كان يوم الأحد أخذوه.